منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الديار للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

"21عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

www.almadasupplements.com

العدد (5728) السنة الثانية والعشرون - الأربعاء (14) آب 2024

ليلى بعلبكي

"أنا أحيا"...عندما تمردت ليلى بعلبكي على الدين وسلطة الرجل

شاكر الأنباري

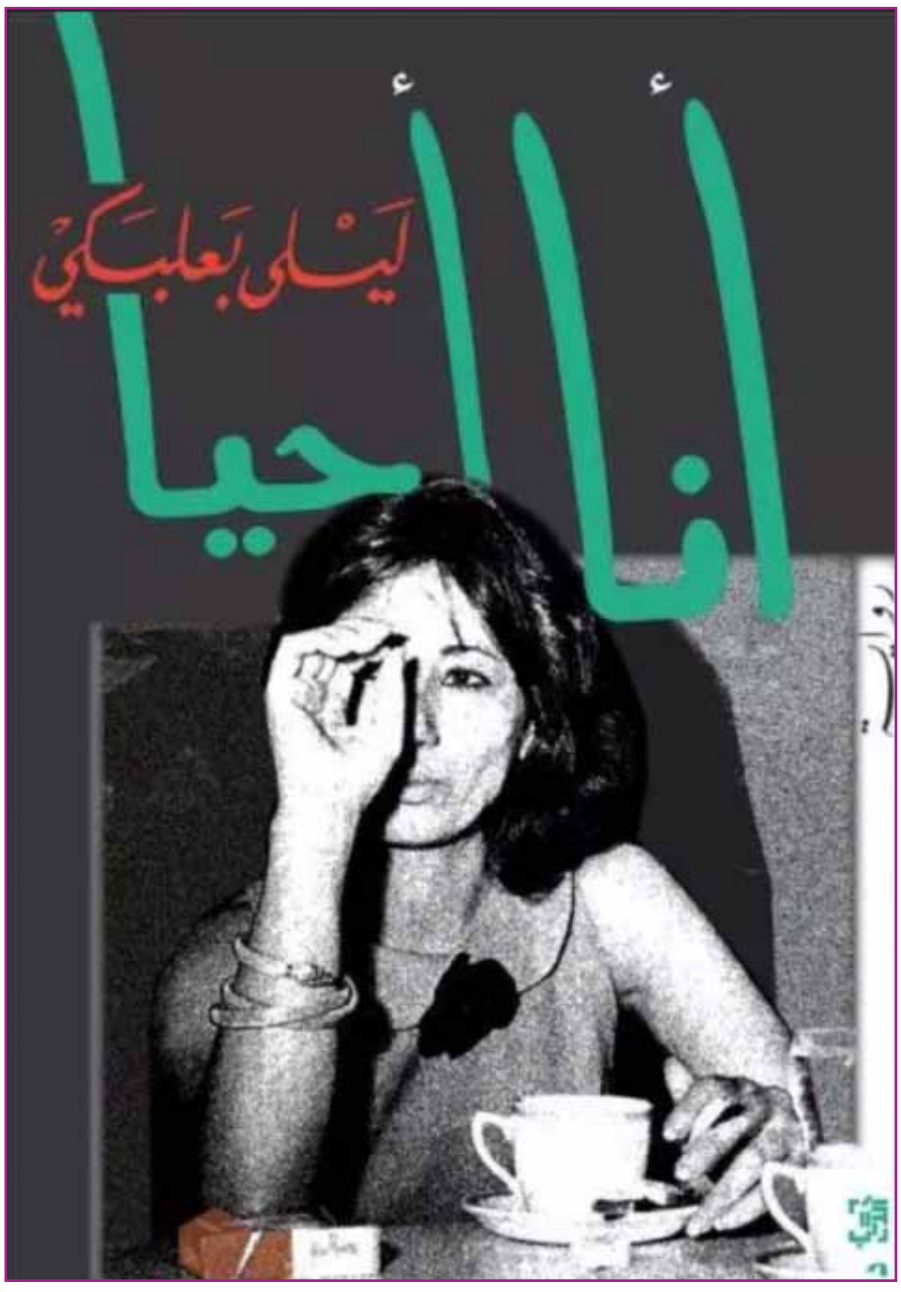

كتبت الروائية اللبنانية الراحلة، ليلى بعلبكي (١٩٣٤-٢٠٢٣)، روايتها "أنا أحيا" وأصدرتها في بيروت منشورات مجلة شعر في العام ١٩٥٨، أي بعد سنة من ولادتي في تلك القرية النائية في الغرب العراقي. أقرأها اليوم بعد خمس وستين سنة من إصدارها، حيث أقيم في قارة أخرى بعيداً من قريتي. وما دفعني لاستعادة روح هذه الرواية موت المؤلفة مغتربة عن مسقط الرأس، وفضولي في تتبع حياة هذه الكاتبة المتمرّدة التي تنتسب إلى عائلة من جنوب لبنان. كذلك لأن واحداً من شخصيات الرواية عراقي اسمه بهاء، وهو شيوعي جاء بيروت للدراسة في جامعتها، وارتبط مع الفتاة بقصة حب طريفة.

اللغة في رواية "أنا أحيا" كانت معاصرة، سلسة وحديثة، لا تحمل روحا إنشائية كما في كتابات تلك الحقبة. كانت تسمي الأشياء بأسمائها، متمردة على الأساليب المتعارف عليه، بينما يعكس نمطها فرادة الكاتبة في تكوين لغتها السردية، ورؤيتها للحياة عموما. وجاء سرد الرواية بضمير المتكلم على لسان الفتاة، وبتيار الشعور الذي يرصد كل شيء، وكل حركة. ويستنشق كل رائحة، ويحاكم كل حوار يقال أو يفكر به. وأنسنة الجمادات ضمن بيئة الحدث، من مبتكرات هذه الكتابة، فالكرسي يضحك، والمنفضة تمرح وترقص، والشعر يفكر بالعيون المحدقة. القهوة تغازل الحبيب، والفستان الأبيض يحلم بالعريس، وهكذا.

ونجحت بعلبكي في السيطرة على أحداث روايتها بهذه التقنية حتى النهاية، وهي براعة لافتة لكاتبة لم تكن قد بلغت الثلاثين بعد، وتنجز تجربة أولى في كتابة الرواية. ثورة فتاة على مجتمع يحكمه الدين، ربما بشكل غير مباشر، من خلال الشرائع المتوارثة للمحرم والمحلل، وخاصة ما له علاقة بدور المرأة وموقعها في العائلة، والهيمنة الذكورية، وقمع حرية النساء في التعبير عن رغائبهن والبحث عن طريقهن الخاص في التعامل مع ظواهر المجتمع وعقده، كالحب والزواج والعذرية والميراث والقول والنقد والاعتماد على الذات.

تقوم بعلبكي بتقشير الواقع الخادع بقصدية ووعي، وهي تبحث عن جوهر الأشياء، في البشر والظواهر الاجتماعية، والتعابير اللغوية التي اعتاد الناس تداولها حتى دون وعي بها أحيانا. فإذا بالمشاعر والأفكار والهواجس ترافق الحدث، وتتولد منه معظم الأحيان، وهذا ما شكل رؤية متقدمة في فن كتابة الرواية العربية، والنسوية منها على وجه الخصوص. في حين تلعب الأيديولوجيا دوراً في تأطير العقل حول مقولات بعينها، خاصة الأيديولوجيا الشيوعية التي كان الطالب بهاء العراقي يروج لها، وينظر من خلالها إلى الأحداث التي تجري في المنطقة والعالم. وهنا توحي لنا الكاتبة بها إيحاء، كالصراع الفلسطيني الإسرائيلي، والمعركة بين الرأسمالية والشيوعية، وخروج مصر من العدوان الثلاثي عليها في عام ١٩٥٦، وتيه البوصلة في البحث عن الهوية. كذلك الأمر مع الأيديولوجيا القومية وتركيزها على قضية الوحدة العربية.

تبحث عن ذاتها

وكانت بيروت مسرح الشخصيات المهزوزة أو الواثقة من نفسها، والأسر الغنية بتقاليدها الغربية الوافدة، والمؤسسات التي تفشت في كل زاوية وشارع، والقيم البرجوازية، ووصايا الأسر الفقيرة التي نساها الزمان في القرى النائية بين الجبال، والوديان، والسهول. فتاة تبحث عن ذاتها ومجتمعات تطبخ نفسها، سنة بعد سنة، وعقداً بعد آخر، بحساء التفاهة، والقدرية، والجهل، والعجز، والتخلف. وتتحدّث ليلى بعلبكي عن كل ذلك، بتلميح أو بتصريح، بتمهل أو بلفتات برقية من أفكار ومواقف ليلى التي اختفت عن الأنظار مدة خمسين سنة. إذ ماتت في لندن عن عمر ناهز ٨٩ سنة وقد ولدت في جنوب لبنان سنة ١٩٣٤. ويعتبر اختفاؤها عن التأليف والنشر، رغم ما حازته روايتها من شهرة، ثم محاكمتها بعد ذلك عن مجموعتها القصصية واتهامها بخدش الحياء العام في لبنان، حالة نادرة في محيطنا الثقافي العربي.

هل هو يأس من تغيير المجتمعات العربية التي ما زالت محكومة بالدين والأيديولوجيا؟ هل هو زهد بالشهرة، وهو نادراً ما يحصل في ثقافتنا منذ أبي حيان التوحيدي الذي أحرق كتبه في أواخر أيامه يأساً من أمة العرب والإسلام؟ هل للأمر علاقة بنضوب موهبة، بعدما قالت كل شيء في روايتين ومجموعتي قصص، فانزوت مع زوجها لتعيش بعيداً من جعجعة الهموم العربية التي أكلت قوى النخب المثقفة، وعقولها، خلال قرن من الزمان، لتعود تلك المجتمعات كل مرة إلى نقطة الصفر؟ وهذا ما يمكن رؤيته في معظم المجتمعات العربية التي ارتدّت اليوم إلى الحجاب، وقمع حرية المرأة، وهيمنة الدين لوحده على الساحة.

وكأن ليلى بعلبكي، وغيرها من النساء في أكثر من بلد عربي، لم ترفع ذات يوم لواء التحرر للمرأة، وتقدّم على ثورتها احتجاجاً على الحجاب، وهيمنة الرجل المسنود بالنص الديني، وتخلف الشارع والسلطة السياسية. وذلك منظور اليوم في الشارع المصري، والعراقي، واللبناني في جنوبه وقراه وسهوله، والليبي المصطرع، والخليجي، وغيرها من بلدان العرب. ويلمس المرء الردة الحضارية الضارية إلى الماضي باليد، ويراها بالعين، ويسمعها بالأذن في كل ثانية، ودقيقة، وساعة.

"أشعَلْنا النار فأحرقتنا": ثلاث مقالات شعرية بقلم ليلى بعلبكي

مـــــارو بـــابـــون

نشرت مجلة "الآداب" الثقافية اللبنانية عام ١٩٧٣ عدداً خاصاً بعنوان "أدباؤنا في المعركة" يتناول حرب تشرين/ أكتوبر التي كانت قد بلغت أوجها قبل بضعة أشهر من صدور العدد. صحيح أن نهايات الأمور، وإن لم تكن جميعها، لا تبدو عند بلوغها بدايات مكلّلة بالنصر، إلا أنّ نهاية حرب تشرين/ أكتوبر سرعان ما وُصفت بأنها حرب النهضة والانبعاث. لقد أعادت انتصارات القوات السورية والمصرية على إسرائيل الثقة بالهوية العربية التي واجهت مصيراً قاتماً بعد نكسة حزيران/ يونيو ١٩٦٧. افتتح سهيل إدريس، الكاتب والمحرر الملتزم في مجلة "الآداب"، العدد الخاص بافتتاحية اعتبر فيها أن الحرب سجّلت "تاريخاً جديداً للشعب العربي". كيف سيتمّ تناول هذا التاريخ الجديد – ما هي الأسباب والمظاهر التي أدّت إليه؟ – سؤال طرحه أدريس ودعا الأدباء العرب إلى الإجابة عليه.

جاءت الإجابة عن هذا السؤال، في لفتة مؤثّرة تعبّر عن الوحدة، من نحو مئة من الأدباء من بلدان مختلفة، نحو إثني عشر بلداً. وقد قدّم أدونيس، وتوفيق الحكيم، ونزار قباني، ومحمود درويش ونجيب محفوظ، وهم مجموعة من الكتّاب المعروفين، مقالات في ذلك السياق كُتبت خصيصاً للعدد الخاص الذي تضمّن أيضاً مقالات تحليلية وقصصاً قصيرة وقصائد مختلفة ومتنوعة كانت قد نُشرت في مجلات دورية توزّع أو تصدر في بلدان مختلفة في المنطقة. تصدّر الغلاف إضافة إلى أسماء عدد من المساهمين اللبنانيين، أسم مميز: ليلى بعلبكي. برز اسم ليلى بعلبكي ليس فقط لأنها واحدة من قلّة من النساء اللواتي كتبن في هذا العدد بل لأن اسمها يأتي كتذكير بأن عام ١٩٧٣ هو تاريخ الذكرى السنوية العاشرة لحدث بارز في تاريخ الأدب العربي النسوي: نشر مجموعة القصص الوحيدة التي كتبتها وتحمل عنوان "سفينة حنان إلى القمر" والمُحاكمة التي واجهتها بعد نشرها.

بعلبكي هي كاتبة رواية "أنا أحيا" التي نُشرت عام ١٩٥٨، وهي أول امرأة عربية تتحدث عن الأفكار الوجودية لتحاكي حالة النساء في لبنان. تتحدر بعلبكي من عائلة ذات أصول شيعية ولدت عام ١٩٣٦ في بيروت. ظهرت بعلبكي في عصر ثقافي يعتبر ذروة التحوّل الكلّي للوظيفة الاجتماعية إذ بدأت الكتابة تُعتبر سلاحاً في جميع أنواع الصراعات الإجتماعية – السياسية في المنطقة. وكما ذكرت كفاح حنّا ومارغو بدران أنّ الحركة النسوية تلقّت الدعم مع انتهاء فترة الوصاية وذلك من خلال التركيز على تطور القوة الثقافية والأدبية بين النساء٢ (البرجوازيات بشكل أساسي). شهدت أواخر الخمسينيات – سنوات شكّلتها نهضة العروبة والنهضة الثقافية الفلسطينية وصراعات متنوعة مناهضة للاستعمار – توثيق الروابط بين الاستقلالية الفكرية وتمكين المرأة. لقد جسّدت لينا، بطلة رواية "أنا أحيا"، قوة معتقداتها الوجودية وفردية شخصيتها؛ وشكّل مسار بحثها الدائم لمعرفة الذات المساحة الاجتماعية للرواية. شكّل نقد لينا اللاذع للبرجوازية الذكورية كسلطة ذات سيادة، مصدر إلهام لعدد كبير من الأدباء الذين عاصروا بعلبكي والذين دخلوا معترك الأدب فيما بعد. دفعت الرواية بعلبكي الى الصدارة إذ أطلقت ما اعتبرته حنان عواد أول "حركة نسوية ثورية" في الأدب العربي.٣ أما حنان الشيخة وكوليت خوري فقد اعتبرتاها نموذجاً مهماً، هذا ومن الجدير بالذكر أنه كان من الصعب إدراج رواية مثل "الباب المفتوح" عام ١٩٦٠ للكاتبة لطيفة الزيات في قائمة الأعمال الأدبية لولا لم يسبق ذلك تقبّل رواية "أنا أحيا".

حظيت رواية بعلبكي باهتمام عدد من القطاعات الأدبية العربية، غير أنّها أثارت من ناحية أخرى غيظ منتقديها. وتحوّل ذلك الغيظ إلى اضطهاد صريح وعلني عند نشر مجموعتها الروائية "سفينة حنان إلى القمر" عام ١٩٦٣. وبعد مطالعة أخلاقية، نُشرت تحت اسم مستعار في المجلة المصرية "صباح الخير"، جرى حظر المجموعة في لبنان وتمّت مُحاكمة بعلبكي بتهمة ما سُمّي "إباحية" عدة قصص. كانت تلك المحاكمة الأولى من نوعها في لبنان، حيث جرى محاكمة كاتبة بتهمة "إهانة الأخلاق العامة" عبر كتابات تتناول الرغبة الجنسية من منظور المرأة. وبالرغم من تبرئة بعلبكي، إلا أن التجربة كانت مروعة. واتفق النقاد بالإجماع أن المحاكمة أنهت المرحلة الأكثر أهمية في مسار بعلبكي الأدبي.

وكانت نهاية أخرى أدّت إلى بداية جديدة، إذ تحوّلت بعلبكي إلى الصحافة. وكان أن نشرت في الستينيات والسبعينيات في المجلات والصحف مقالات تناولت فيها ما كان يجري حينها من أحداث وأمور أثارت اهتمامها. قد تكون تلك الكتابات شخصية أو سياسية؛ إلا أنها غالباً ما كانت تؤكد، كما في مقالاتها الثلاث التي نُشرت في العدد الخاص من مجلة "الآداب" عام ١٩٧٣، أن الحدود بين الاثنين جرى طمسها. ومن الجدير بالذكر، أن الحدّ بين الملاحظة التوثيقية والإبداع الأدبي كان قد طُمس هو أيضاً. "شَهدْتُ ولادة الفجر"، "على وجه الماء مشى حبيبي" و"أيتها الدبلوماسية: نارنا لن تطفئيها" – هذه النصوص التجريبية القصيرة بشكل عام، والتي جرى نشرها في مجلة "الدستور" وتمّت ترجمتها هنا لأول مرة إلى اللغة الإنكليزية، تناقض الرواية القائلة إن بعلبكي توقّفت كليّاً عن ممارسة النشاط الأدبي بعد محاكمة عام ١٩٦٣. وقد أظهرت هذه النصوص مفهوم بعلبكي الجديد للحرية.

"أنا أحيا"، كما يبدو من العنوان، تأكيد صارم على الاستقلالية (الفردانية) (link is external) الفطرية. تعتبر لينا أنه يجب تحقيق الحرية من خلال ممارسات تملّك الذات. (تبدأ الرواية بعبارات: "تساءلت، فيما كنت أعبر الرصيف بين محطة القطار ومنزلنا، لمن هذا الشعر الدافئ، هذا الشعر المنثور على كتفيّ؟ هل هو لي؟ أوليس جميع المخلوقات عندها شعر تستطيع أن تفعل به ما يحلو لها؟" من هذه البداية التوكيدية التي تعتبر الجسد كنقطة صراع للحرية، تعكس الرواية أفكاراً ثورية في كل الاتجاهات ضد أية سلطة قد تعيق بحث لينا عن الأصالة سواء كان الأب أو جهة سياسية. وَصَفَ بعض النقّاد في ذلك الحين الرواية بأنها عدمية رغم قوة ثورة لينا وبلوغها حدود الطيش، إلا أن التقييم الحديث للرواية استخلص منها دروساً مختلفة. دروس على صلة وثيقة بأهدافنا؛ دروس تؤكد أن الصراع من أجل الحرية والحرية كشكل من رفض الاستعمار تبدأ من داخل النفس وتنطلق للخارج لتطاول العائلة والدولة وتستمرّ لتطاول أخيراً... كل ما يعترض طريقها.

إن كانت روايات "أنا أحيا" و"سفينة حنان إلى القمر" لبعلبكي تضمنت ذلك الدرس باختصار، فإن مقالاتها في مجلة "الآداب" عكست تعبيرها النضالي الناضج. قدّمت لنا هذه النصوص التي ظهرت بمناسبات مختلفة فكانت أحياناً واضحة جداً وأحياناً أخرى خفيّة، برمزيتها، مفهوماً للحرية ما زال مرتبطاً بجسد المرأة وتجاربه الحميمة. إلا أنه جسد يدفعها بقوة عبر الجموع، ويمحو الـ"أنا" لتذوب بالـ"نحن" التي تضمنت الكثير من الفخر والمعنى. ومن خلال استخدام استعارات كونية ولغة رمزية نابضة بالحياة، نال الحشد الثوري المتدافع من خلال هذه المقالات نقطة انطلاق جديدة للنضال من أجل الحرية؛ ومن خلال تلك الجدلية استردّ الفرد نفسه لأنها تحركت ضمنها. هي جموع تحارب علناً لتحرير فلسطين (في مقالات "حضرت ولادة الفجر" و"أيتها الدبلوماسية: نارنا لن تطفئيها") ولتثبيت مساهمات النساء في القتال لتحقيق عالم متساوٍ جديد. في هذه النصوص، تتفاعل نشوة الحب الرومنسي مع انفعالات الاضطرابات الاجتماعية، ويجسّد الوجع المبرح للحب الضائع عذاب الخيانة السياسية. سُمّي الشهداء عشاق وأعداء للدولة الصهيونية. وعندما جرى التشديد على مفهوم الأسرة والإشادة بها كما في "على سطح الماء مشى حبيبي"، كان ذلك من خلال لغة التكاثر الاجتماعي. وعندما استحضرت الأمومة، كانت بمثابة الوتد الذي سيؤدي عدم وجوده إلى انهيار بدعة العالم المادي برمتها. قد لا يخلو الأمر من بقايا مسار ثقافي موروث يمنح أسبقية للبسالة الذكورية، لكن الإهتمام بالقرابة النسوية وبوضع عمالة النساء كشرط مسبق أساسي لمتاعب المقاتلين الرجال، أثبت صحة الأساليب التي عبّرت من خلالها بعلبكي عن التخيلات النسوية في عصرها. وفيما كانت فئة المحاربين الرجال تلقى التبجيل، بدأت الأمور تتجلّى. تبيّن أنهم وسطاء اجتماعياً. هذا التحول الذي تناولته بعلبكي حول المطالب النسوية والذي حاكى ما أشارت إليه كفاح حنّا على أنه انتقال من نموذج نسوي فردي محض إلى نموذج علائقي، بدا هنا مُؤثراً جداً من خلال الابتكارات الرسمية والجمالية التي تضمّنها.

عندما قرأت مقالات بعلبكي للمرة الأولى في مجلة "الآداب"، اعتبرتها قصائد نثرية. جعلتني الرمزية، والفواصل المتكررة، وبناء وإيقاع الكلمات المستخدمة أبلغ تلك التفسيرات – هذا عدا أن القصيدة النثرية، كانت، بشكل عام، رائجة جدا في المحافل الأدبية اللبنانية في فترة السبعينيات (١٩٧٣). لم أعرف أن تلك النصوص هي مقالات صحفية إلا بعد أن أتيحت لي الفرصة إلى مراسلة الكاتبة – من خلال زوجة ابنها زينة. إلا أن بعلبكي تفهّمت حالة الارتباك التي اعترتني وأعجبتها فكرة أن تبدو مقالاتها قصائد وكتبت في رسالتها، "إنها موهبة قطرية" بعدما ذكرت أن والدها كان شاعراً.

وهكذا اعتبرتُ تلك النصوص الثلاث "مقالات شعرية" قدّمت من خلال تأرجحها الرسمي والعام أفكاراً قيّمة حول أساليب الكتابة التي حاكت الإحساس بالحياة عبر "التاريخ الجديد" الذي كتب عنه إدريس. النضال الفلسطيني، واغتيال القادة اليساريين وفشل الإصلاحات السياسية، ظهرت جميعها في مقالات بعلبكي التي كتبتها عام ١٩٧٣ ليس فقط كمسائل عربية إنما كاهتمامات محقّة نسوية ومناهضة للاستعمار. نبّهتنا هذه المقالات إلى أهمية هذا التحوّل التاريخي في المسار النسوي بقدر ما لفتت انتباهنا إلى أن بعلبكي بقيت شخصية مؤثرة في الأدب العربي لزمن طويل بعد المحاكمة التي بات اسمها مرادفاً لها. أمل أن يكون إعادة تسليط الضوء على تلك الفترة من عملها في ترجماتي، حافزاً ليفعل آخرون ذلك أيضاً

• عن موقع كحل الالكتروني

"21عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"
العدد (5728) السنة الثانية والعشرون - الأربعاء (14) آب 2024

ليلى بعلبكي ترحل بعد أن كتبت بيان تمردها

علي حسين

في صيف عام ١٩٦٤ وقفت فتاة تبلغ من العمر "٢٨" عاما امام قاضي شرطة الاخلاق الذي سألها: لماذا تكتبين بهذه الطريقة؟ ارادت أن تقول: هل يحق لأحد ان يسأل فنانا لماذا يكتب هكذا؟، لكنها استدركت لتجيب على سؤال القاضي بصوت مرتفع: لانني اعتبر نفسي اتمتع بحرية الرأي والفكر والعمل الممنوحة لكل شخص في لبنان. يقول لها القاضي وهو ينظر الى تسريحة شعرها الغريبة: ألا يتهيج المراهقون بعد قراءة كتابك.. تصمت قليلا ثم تجيب: "الكتاب يتكلم عن البشر، عن الناس، عن الاشخاص، في هذا البلد. يصور الواقع بطريقة ادبية فنية، واذا كانت تجب مصادرته فالاصح ان يصادر البشر هنا لانهم مادته".

وعندما يسالها القاضبي ثانية: لماذا استخدمت بعض الكلمات الخادشة للحياء. تصمت، فبماذا تجيب وهل عليها ان تفسر لماذا يستخدم الاديب هذه الكلمة بالذات دون غيرها. انتهى الاستجواب: "كانت الدقائق ثقيلة تزحف في عيني، والصمت يزيد غضبي واستنكاري الاخرس، كان المقصود ان يشعرني القاضي بالخجل مما اكتب، وبالذنب، واحسست فقط انني وجدي في غابة، وكنت مليئة بالحزن، حزن كبير يغرق العالم" – ليلى بعلبكي دفاعا عن الحرية مجلة حوار ١٩٦٤.

خارج المحكمة انقسمت الصحافة بين مدافع عن ليلى بعلبكي وبين من يرى ان ما كتبته يسيء للاخلاق العامة كتب يوسف الخال: "سوقوها للسحن ولا تخيبوا ظننا. الماء ركدت واسنت بما فيه الكفاية، وحان ان تحركها هذه الصخرة"، وكتب جميل جبر: "القضية التي اثارت اهل القلم عندنا تتجاوز ليلى بعلبكي وكتابها. انها قضية كرامة كاتب واحترام رأي" وكتب انسي الحاج في صحيفة النهار ان ليلى بعلبكي: "ذهبت ضحية لأنها امرأة ولانها معروفة ولأن رايها صريح في النظام البوليسي" واصدر عدد من الكتاب بيانا استنكروا فيه مصادرة الكتاب واستجواب مؤلفته امام شرطة الاخلاق.

كانت شرطة الاخلاق قد القت القبض على ليلى بعلبكي بعد مصادرة مجموعتها القصصية "سفينة حنان الى القمر"، تم احتجاز الكاتبة لعرضها على قاضي التحقيق. بعد ضغط الراي العام والصحافة صدر القرار بوقف التعقيبات الجارية بحق ليلى بعلبكي التي ستكتب: "جاء يوم خلاصنا.. نعم خلاصنا نحن. الذين هي القضية قضيتهم. يشرفني ان اكون سبب هذا الحادث التاريخي"،.نهاية عام ١٩٦٣ اصدرت ليلى بعلبكي مجموعة قصصية بعنوان "سفينة حنان الى القمر – تضم "١٢" قصة نشرت معظمها في عدد من المجلات منها "شعر، حوار، ادب"، وكانت القصص امتداد لوجه نظر الكاتبة عن الحياة، حيث تدور معظم احداث قصصها حول فتاة تطالب بحريتها، فنجدها في قصة "لم يعد صدرك مدينتي" تقدم لنا الفتاة التي غادرت قريتها الى باريس، تسخر من الذين يؤجلون مشاعرهم لتعلن: "انا امراة مجنونة ياعزيزي، وانت! وانت ياعزيزي رجل عاقل رزين يؤمن بالمستقبل.. خذ مستقبلك لك. خذه على حذائي" – بعلبكي سفينة حنان الى القمر صادرة عن.ستهدي ليلى بعلبكي نسخة من امجموعتها القصصية الى الصحفي المصري مفيد فوزي الذي كان يكتب زاوية في صباح الخير باسم مستعار "نادية عابد". في العدد الصادر ٤ حزيران عام ١٩٦٤ من محلة صباح الخير كتبت نادية عابد – مفيد فوزي –: "اهدتني السيدة ليلى بعلبكي، الاديبة اللبنانية كتابها الاخير.. عبارة عن مجموعة قصص لم أكن قد قرأتها من فبل.. تسلمت الهدية بلهفة.. أنا متحمسة للكاتبات والاديبات.. مضى الوقت الذي يعبر فيه الرجل عن احاسيس المرأة.. قلبت كتاب ليلى بعلبكي بسرعة وتوقفت عند مطوية. عدلت الصفحة ولمحت عيناي اربعة سطور غريبة (وسألته أتذكر كم كانت حلوها جارحا جدا، ولم يعد السيد يحتمل فهتاج، واخيرا نطقها بشراهة.. برغبة: لن تذهبي.. لحوس أذني، ثم شفتي، وحام فوقي، ثم ارتمى وهمس انه ملتذ وأنني طرية ناعمة مخيفة.. وانه افتقدني كثيرا) شعرت – هذا كلامي أنا – بقشعريرة وبتقزز، وقلت لنفسي بضيق: ياست ليلى بعلبكي.. لحوس إيه، وحام إيه، وطرية وناعمة إيه.. وادب إيه.. ملعون هذا الادب ياشيخة" — مجلة صباح الخير حزيران ١٩٦٤ –. عندما قرأت ليلى بعلبكي كلمات مفيد فوزي شعرت بالاستياء، لكنها لم تتوقع هذه السطور الساخرة زوبعة ادت الى مصادرة المجموعة القصصية واعتقالها من قبل شرطة الاخلاق.

حضرت ولادة الفجر

في البدء كان الوجه .
ولملمت في حلم لذيذ .
صرت معلقة في الفضاء الرمادي . ولم اعد اعرف ولا احس طعم القيار على فمي . صقيع ناعم سكن رؤوس اصابع القدمين واليدين ولم اعد اطأ البلاط ولا الاسفلت ولا التراب ، صرت سحابة .
والوجه الذي كان في البدء يطفو على وجهي استطعت ان اشاهد فيه شروق العينين : لمعان من القسوة يتدفقان .
آه .
لا تستفهموا مني عما اتحدث .
امنحوني نعمة الهذيان .
احاول ، احاول ان ادلي بشهادتي .
بصعوبة قاسية ، انسلخنا هذا اليوم ككل يوم من مضاجعنا . [illegible]
احاول ان اشرح :
انا ، وفي السادس من شهر تشرين الاول ، وكان اليوم يوم سبت ، والوقت بعد الظهر ، وبهاتين اليدين والعينين حضرت ولادة الفجر .
آه .
كانت هذه الارض تغرق في الظلمة والجفاف . [illegible] والانكسار . [illegible] الذل والقهر والخسارة .
واهتزت الارض قليلا . لم تمطر . [illegible]
الاخضر :
من جوف الاضطهاد والتعذيب ، من سواد الظلم ، [illegible]
يولد ويمشي .
هكذا بالعجوبة يتقل قدما . يتوجه الى الامام ، يرفع القدم الاخرى ويمشي . هكذا يتقدم الى الامام .
اسالوا الوجه الذي كان يطفو فوق وجهي فوق الغمامة ، فهو الشهيد وهو الشاهد .
فتشهدت .
لا .
اسمعوا غيري نشرات الاخبار ونتائج المعارك والتحاليل العسكرية .
الوجه يكبر . [illegible]
فرجاء .
رجاء الى الذين يشعلون الآن الحرائق المقدسة في كل شبر في هذه الارض [illegible]
الى الابطال الذين [illegible]
الى الرجال الذين عادوا الينا بعد زمن طويل [illegible]
الذل والمهانة ،
اليهم اطلب ،
اليهم رجاء ،
ان يرفعوا فوق جسد كمال ناصر قطعة من سلاحهم [illegible] شجر الزيتون .

الدستور
١٥ تشرين الاول

كانت المجموعة قد اثارت النقاد، فقصصها الجريئة وتصويرها للعلاقة بين الرجل والمراة جعل صحفيا مثل سعيد فريحة يكتب في مجلته الصياد: "كيف يمكن لليلى بعلبكي ان تكتب ادب جنس ما دام ادي الجنس هو ادب التجارب، وليى فتاة شرقية ما تزال في عمر الورود" ٣٨٧٠ ليلى بعلبكي

لم تكن هذه هي المرة الاولى التي تتمرد فيها ليلى بعلبكي على واقعها، فابنة الجنوب اللبناني وقفت ذات يوم من شهر ايار عام ١٩٥٩ لتلقي محاضرة بعنوان "نحن، بلا اقنعة" – نشرت خالدة سعيد نص المحاضرة في كتابها يوتوبيا المدينة المثقفة – ستتحول الى بيان لجيل جديد يرفض سلطة الكبار ويطالب بحريته، ويسعى للخلاص من هيمنة كل الكبار، من الأباء الى السلطة السياسية، يرفض القسمة الى حاكم ومحكوم، يرفض القيم التي لم يسهم في صنعها، ويرفض القوانين التي صنعت للقيود التي صُنعت للابناء والنساء والرعايا: "نحن.. جيل اليوم.. تفنن البعض في تسميتنا المتمردون، الكارثة، الضائعون. الشاذون، الفوضويون. المصيبة.. الى آخر ما هناك من القاب مرعبة" ووسط دهشة الحاضرين تعلن بصوت عال: "كل ما على الارض لا يمثلنا ولا يرضينا لأنه من صنع غيرنا". اصدرت روايتها الاولى "أنا احيا" التي نشرتها مجلة شعر في ايلول من عام ١٩٥٨، بعد ان روجت لها باعلان على صفختها الاخيرة جاء فيه: "ان هذه الرواية سيكون لها أثر بديع في مستقبل الرواية العربية وستصفها الناقدة يمني العيد فيما بعد بانها اولى الروايات النستئية الحديثة التي شكلت علامة بارزة على تطور الكتابة الروائية العربية".

اتذكر الرواية في غلافها الكريمي اللون والخطوط الخضراء التي تصور امرأة كأنها تقف وسط الطريق واسم ليلى بعلبكي على يمين الغلاف، وعبارة منشورات مجلة شعر والمكتبة العصرية اسفل الغلاف، عثرت عليها بين اكوام الكتب عند عبد الرحمن السامرائي "ابو عوف" الذي كان يتخذ من دكان صغير في بداية سوق السراي مقرا له، أذهب اليه كلما زرت شارع المتنبي، وكانت العربة التي يستخدمها في عرض الكتب وفي التنقل مصفوف عليها كتب من كل شكل ولون، وانا انبش فيها بحثا عن رواية او كتاب في المسرح، لمحت غلاف "انا احيا"، كان الاسم قد مر عليَّ كثيرا في المكتبة التي اعمل فيها والزبائن يبحثون عن روايتها هذه ورواية ثانية بعنوان "الآلهة الممسوخة". وعندما سالت عنها ذات يوم المرحوم الناقد الكبير عبد الجبار داود البصري وكان من زبائن المكتبة قال لي بهدوءه المعهود وصوته الهاديء، انها كاتبة لبنانية جريئة اثارت ضجة في بداية السابنيات لكنها اعتزلت الكتابة منذ سنوات. ادرك الآن ان ذلك الفتى الذي التقط الكتاب من عربة "ابو عوف" كان متلهفا لكي يعرف: ماذا كانت تريد ان تقول ليلى بعلبكي، وماذا يحمل هذا الكتاب المُصفر من اسرار وخفايا؟. لم انتظر طويلا،جلست في مقهى صغير يقع في زاوية وسط سوق السراي، فتحت الصفحات برفق لاقرأ: "فكرت وانا اجتاز الرصيف، بين بيتنا ومحطة الترام: لمن هذا الشعر الدافئ المنثور على كتفي؟ أليس هو لي، كما لكل ححي شعره يتصرف به على هواه؟ الست حرة في أن اسخط على هذا الشعر، الذي يلفت إليه الانظار حتى أمسى وجودي سببا في وجوده. الستُ حرة في ان امنح حامل الموس لذة تقطيع خصلاته وبعثرتها ا بين قدميه، ليرميها حامل المكنسة، في تنكة قديمة صدئة. تمضي السطور من امام عيني سريعة، تعلن الروائية انها "من الآن وحتى المساء، سابني مستقبلا لحياتي"، التفت حولي فقد توقغت ان زبائن المقهى ينظرون اليَّ وانا اتلصص على حياة بطلة الرواية، اغلقت الكتاب ووضعته بين كتب كنت اشتريتها وقررت ان اكمل الرواية في البيت من دون ان يعرف احد بانني اغوص في حياة امراة تريد ان تتحرر.تمضي الصفحات سريعة، ها هي بطلة الرواية لينا تقع في غرام طالب عراقي "بهاء" يقدم نفسه لها: "طالب في السنة النهائية من الجامعة، من الريف العراقي.. سئمت الحياة وجسدي بدأ يهرم وانا مازلت في الخامسة والعشرين من عمري". تاخذنا ليلى بعلبكي في رحلة استكشافية داخل عالم فتاة تجد نفسها ضحية الشرط الانساني القاس الذي يفرضه عليها المجتمع، بطلة الرواية لينا تعلن ثورتها على فراغ الحياة، وعلى كل ما مترسخ من تقاليد بالية في اذهان الناس، وتثور على عائلتها وعلى مرؤسها بالعمل، انها رواية هجائية تؤرخ لفترة مهمة من تاريخ الشعوب العربية.. وتقدم شهادة على ان الطريق مختلف بين الرجل والمراة: "فالمرأة تنشد التحرر والرجل لا يستجيب إلا لرواسبه". اننا نحيا في رواية ليلى بعلبكي احساسها الداخلي وطريقة تخيلها للعالم الذي تريد العيش فيه، نحيا معها بطريقة صاخبة غربتها وتمردها. ان قصة التمرد عندها تبدأ: "حين وعينا فجأة انفسنا، ومررنا بيدنا على وجوهنا وصدورنا، نتحسس اجسادنا، وتلفتنا بحذر نتمعن في ماضينا. وحملقنا باستغراب، ننقب عن صلة تربطنا بالاشخاص حولنا. ثم قفزناعلى الطريق هاربين"، تكتب خالدة سعيد: "عبرت ليلى بعلبكي عن جيلها بلغة هذا الجيل، ودافعت عن مشروعية تمرده، ورفضه بلا اقنعة ولا مساومة" – يوتيبيا المدينة المثقفة – يصف انيس منصور رواية "انا احيا" بالبصقة في وجه القرن العشرين: "ولم تكن لليلى بعلبكي رسالة ابعد من ذلك، فقد جاءت روايتها خلاصة ما لديها فقالت كلمتها واختفت" – مع الآخرين –.

عام ١٩٦٠ تنشر روايتها الثانية والاخيرة "الآلهة الممسوخة" وفيها تقدم عالما جديدا لا اصلة له بعالم "انا احيا".هناك اسرة تتكون من الزوج "نديم" استاذ التاريخ والزوجة "عايدة" التي تتلهف لانجاب طفل. الزوج يعيش في عالم غارق بذكريات العلاقات النسائية عندما كان يدرس في اوربا، مشغول بدروسه وابحاثه، يدمن الشرب تخلصا من هموم حياته الزوجية، فالزوجة الغنية والتي لاتملك جمالا قد خدعته عندما تزوجها واكتشف انها على علاقة سابقة برجل، تقتصر علاقته بها على شؤون حياتهم اليومية، يتجنب النوم معها. يسمع الناس تقول: "مسكين نديم.. هذه المراة مرعبة. تزوج دراهمها التي تطير ساقيها الرخوتين. وعايدة لاتهتم لهجر زوجها لها، حيث تعوضه بدمية كبيرة اسمتها "نانا" تنام معها على السرير وتحتضنها، تشير عايدة مطرجي ادريس "ان شخصيات رواية "الالهة الممسوخة "ليس فيها من يستطيع ان يخلق لدى القارئ حس المشاركة". انها تقدم رواية عالمها مكون من افراد كل منهم يسعى الى ذاته بالطريقة التي يراها تحقق غايته: "غداً سامارس كل هنيهات يومي واهنأ بها".

ليلى بعلبكي المولودة في احدى قرى النبطية بجنوب لبنان في التاسع عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٦ لعائلة كان الجد فقيها يعلم الاطفال القراءة والكتابة، والدها يكتب الشعر العامي، تغغت بجدها كثيرا وفي مكتبته الصغيرة قرأت كتاب نهج البلاغة وتعلقت باشعار ابي تمام والبحتري وقالت لجدها ان المتنبي يحب نفسه كثيرا.اكملت دراستها الابندائية والثانوية، دخلت جامعة القديس يوسف لدراسة الادب الشرقي، لكنها ستتوقف عن الدراسة لتعمل سكرتيرة في مجلس النواب اللبناني بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٠، ثم كصحفية في عدة صحف يومية. بين عامي ١٩٦٠– ١٩٦١ تسافر الى باريس لتبدا دراستها في السوربون تجذبها مقاهي باريس، كانت الوجودية آنذاك في اوج تالقها، تترك الجامعة من جديد.. تقرا فرانسو ساغان فتتعلق بها.. تعود الى بيروت تنشر روايتها الثانية ومجموعتها القصصية الوحيدة".. عشية الحرب اللبنانية تهاجر الى لندن لتستقر هناك، بعد ان تزوجت.. تتوقف عن الكتابة.. تعود الى بيروت عام ١٩٧٩، تقضي سنواتها بين بيروت ولندن تظهر فجاة عام ٢٠٠٩ في معرض بيروت للكتاب بعد ان اقنعتها دار الاداب باعادة نشر كتبها الثلاثة، كتبت ليلى بعلبكي عن حب لم تسعد به، وباتت سيدة تعيش عزلتها مع ذكريات الماضي الصاخبة، موهوبة ومستقلة تدرك ما يدور حولها. ارتابت بالعواطف، وعرفت ظلم السياسة وجدت في البيت ملاذها الاخير من عالم وصفته ذات يوم بانه منحاز للرجال صرخت "نحن مخاوقات نفكر، ونحس، ونعي، ونستسلم، ونقاوم".رفضت ان تتحول الى اداة بيد المجتمع: "لن انتظر امام المرآة طويلا.. من انتظر، ولماذا انتظر؟ لانني انثى؟ انتظر من يرفع لي الحجارة.. من يطعمني اللقمة..انا سجينة و لايمكنني ان اتجاهل ذلك".. عبرت عن جيلها بلغة الجيل نفسه، ودافعت عن مشروع تمردها. في سنواتها الاخيرة اختارت عزلتها الطوعية حتى اعلان خبر وفاتها يوم ٢١ من هذا الشهر تشرين الاول عام ٢٠٢٣ لتسدل الستار على صفحة مثيرة من تاريخ الرواية العربية.

ليلى بعلبكي أسست الرواية النسائية الحديثة في عمر الـ22

عبده وازن

بعدما تعرفت على الروائية اللبنانية ليلى بعلبكي رائدة الرواية النسائية الحديثة في لبنان عام ٢٠٠٩ خلال معرض بيروت للكتاب، وكنت أدمن قراءتها بحماسة أيام الصفوف الثانوية في السبعينيات، دأبتُ على أن أسالها عن جديد لها، كلما تسنى لي أن أتصل بها. وكانت تكرر دوما الجواب نفسه: إنني أكتب، مثلما كانت ترفض أن تجري أي حوار صحافي

في ذاك العام عادت ليلى إلى بيروت، بعد هجرة طويلة في لندن، لتوقع في معرض بيروت للكتاب، روايتيها "أنا أحيا" و"الإلهة الممسوخة" ومجموعتها القصصية "سفينة حنان إلى القمر"، التي كانت دار الآداب أعادت نشرها. بدت ليلى بين كتبها، كأنها لا تزال تحافظ على سحرها القديم وعلى فتنتها، هي التي كانت خلال الستينيات "نجمة" بيروت الروائية، لا سيما بعدما منعت الرقابة كتابها "سفينة حنان إلى القمر" عام ١٩٦٣ بتهمة الإباحية، وأوقفت وحوكمت وربحت الدعوى.

ليلى بعلبكي التي رحلت في لندن قبل أيام، عن ٨٩ سنة، كانت بلا شك رائدة الرواية النسائية الحديثة، ومثلت روايتها الفريدة "أنا أحيا" الصادرة عام ١٩٥٨ وكان لها من العمر ٢٢ سنة، "صدمة" أدبية وثقافية، فهي دعت بجرأة إلى التحرر، بصفتها امرأة مثقفة، وإلى التحرر السياسي والطائفي والفكري. وكان لهذه الرواية أثر في الأجيال المتعاقبة، قراء وكتاباً ومثقفين. وكانت أول رواية نسائية عربية تترجم إلى الفرنسية وتصدر عن دار سوي المعروفة، وقد أنجز الترجمة المستشرق ميشال باربو. وواصلت ليلى مسارها التحرري هذا، في المقالات الرافضة والمعترضة التي كانت تكتبها في الصحافة اللبنانية مثل مجلة "الدستور" و"الأسبوع العربي" و"الحوادث".

صدمة الرواية الأولى

أما روايتها "أنا أحيا" فكانت تبنتها مجلة "شعر" الرائدة، وأعلنت في شتاء عام ١٩٥٨ صدورها، وورد في الإعلان أن هذه الرواية "سيكون لها أثر بعيد في مستقبل الرواية العربية". كان الإعلان لافتاً جداً في مضمونه أولاً وفي تبني مجلة "شعر" عملاً روائياً، هي التي لم يشغلها سوى الشعر الحديث ومعاركه. ولم تمض أشهر حتى راجت الرواية ولقيت نجاحاً كبيراً في الأوساط النقدية وأضحت بمثابة حدث روائي في بيروت الستينيات، مدينة الحداثة، وفي بعض العواصم العربية. ولم تلبث الرواية أن أصبحت أشبه بـ"الظاهرة"، وكان يكفي ذكر "أنا أحيا" حتى ترتسم صورة بطلتها لينا فياض في أذهان كثيرين، نقادا وأدباء وقراء.

في موسوعة "الكاتبة العربية" (المجلس الأعلى للثقافة في مصر)، وفي الجزء الذي تناول الرواية النسائية اللبنانية اختارت الناقدة يمنى العيد "أنا أحيا" كأولى الروايات النسائية الحديثة، واصفة إياها بأنها "شكلت علامة بارزة على تطور الكتابة الروائية العربية في لبنان". هذه المرتبة التي احتلتها "أنا أحيا" سابقاً ما زالت تحتلها تاريخياً، فهي الرواية الأولى الفضائحية في المعنى الوجودي العميق التي تعلن تمردها أولاً على الإرث الروائي اللبناني (من زينب فواز إلى توفيق يوسف عواد)، جاعلة مدينة بيروت إطاراً مكانياً والعصر الحديث إطاراً زمنياً. وأعلنت ثانياً تمردها على الفن الروائي الكلاسيكي أو التقليدي وعلى مفهوم الشخصية الإيجابية وعلى النظام البنائي، مانحة الأنا الراوية الفرصة لتتداعى بحرية وتوتر، وتصبح المحور الرئيس الذي تدور حوله الأحداث وتنطلق منه.

إلا أن المستغرب أن هذه الكاتبة التي أطلت بقوة ظلت أسيرة هذه الرواية الفريدة واختتمت مسارها الروائي في عام ١٩٦٠ عندما أصدرت روايتها الثانية "الإلهة الممسوخة"، ولم تحظ بما حظيت به "أنا أحيا" من فرادة ونجاح. لكنها، هي التي لم تتوار لحظة عن المعترك الروائي، ما لبثت أن اختطفت الأضواء في عام ١٩٦٤ عندما منعت وزارة الإعلام مجموعتها القصصية "سفينة حنان إلى القمر"، وكانت القصة التي تحمل المجموعة عنوانها هي الحافز، نظراً إلى احتوائها مقطعاً أو جملة وصفت بـ"الإباحية" وتتضمن فعل "لحس". وحوكمت ليلى بعلبكي وأوقفت ثم تراجعت المحكمة عن قرار المنع مبرئة الكاتبة والقصة على مضض. وتولى مهمة الدفاع عن الكاتبة قانونياً المحامي الراحل محسن سليم، والد الكاتب الشهيد لقمان سليم والكاتبة رشا الأمير، وكان صلباً في مرافعته الشهيرة. واليوم تبدو تلك الجملة الإباحية خفيفة جداً، نظراً إلى النزعة الأروسية التي تجتاح الأدب الراهن، شعراً ورواية.

لم تمتد تجربة ليلى بعلبكي أكثر من ستة أعوام صاخبة وحافلة بالعطاء، عزفت بعدها عن الكتابة الروائية والقصصية منصرفة إلى الصحافة، لكن روايتها "أنا أحيا" ظلت تشغل وما برحت القراء والنقاد حتى اليوم. وكان جيل من الروائيات بدأ يبرز، وفي طليعته منى جبور التي تأثرت بـ"أنا أحيا" كثيراً، وبدا هذا الأثر بيناً في روايتها "فتاة تافهة" (١٩٦٢) من نواح عدة: اللغة، التداعي، التوتر، الشخصية الرئيسة ندى التي تشبه شخصية لينا في "أنا أحيا". ولم تتوان عن استخدام عبارة "أنا أحيا" في روايتها، مستوحية أحوال التمرد والاحتجاج التي حفلت بها رواية بعلبكي. ولم تكمل منى جبور مسارها إذ أقدمت على الانتحار في عام ١٩٦٤ وكانت في مقتبل الـ٢٠ من عمرها. وفي هذا الجيل برزت إميلي نصرالله عبر رواياتها الرومنطيقية "طيور أيلول" (١٩٦٢) وليلى عسيران من خلال روايتها "لن نموت غداً" (١٩٦٢).

لا تزال رواية "أنا أحيا" على كثير من خصالها ومزاياها، وكذلك على الجرأة التي تميزت بها لا سيما عبر شخصية البطلة – الراوية التي أعلنت أقصى تمردها على القيم والثوابت والأصنام المعاصرة والعائلة والجامعة والأيديولوجيا، بحثاً عن الحرية الحرية الفردية خصوصاً، شخصية سلبية بامتياز (في مفهوم البطل السلبي) عمرها بين الـ١٩ والـ٢٠، عنيفة وشرسة ورقيقة في آن واحد، تكره الحياة وتسعى إليها، تعيش في الواقع وتحلم. "بطلة" متناقضة، تعاني الوحدة والقمع العائلي، تكره والدها وتسخر منه، بصفته رجلاً ذكورياً وزوجاً وتاجراً ينتمي إلى طبقة الأثرياء الجدد. علاقة أوديبية ولكن في الوجهة المعاكسة. تفضحه يتلصص على الجارة المترهلة، هو الثري الذي يفيد من المآسي والأزمات ليتاجر بالقمح وسائر السلع بين لبنان ومصر وبريطانيا. وتبلغ بها الكراهية حتى لتصفه بالأحمق وتحتقره، أما الأم فلم توفرها بدورها من بغضائها. إنها في نظرها أنموذج عن المرأة التقليدية التي لا تعرف من الحياة إلا طهو الطعام وتربية الأبناء ومشاركة الزوج فراشه عندما يريد هو. امرأة خاضعة لسلطة الذكر تشفق عليها وتشمئز منها وتعاندها: "منظر لحم والدتي يثير قرفي منها"، ولعل هذا الموقف من الأم وبعض النماذج النسائية الأخرى يبعد الرواية عن مضارب الأدب النسوي. فقتل الذكر مجازاً، يقابله قتل الأنثى مجازاً أيضاً، ولم يقم في الرواية صراع صريح بين الذكورة والأنوثة، كقطبين متضادين. فالرواية تحتقر الرجل التقليدي مثلما تحتقر المرأة التقليدية.

لا أدري إن كانت ليلى بعلبكي قرأت الأدب الوجودي في عمرها المبكر والفتي وإن كانت اطلعت على أعمال سيمون دوبوفوار وفرانسواز ساغان التي عرفت بميلها الى البطالة واللامبالاة. هل قرأت ليلى بعلبكي كتاب دوبوفوار "الجنس الآخر" الذي أثار سجالاً كبيراً عند صدوره في عام ١٩٤٩. تقول دوبوفوار في روايتها "مذكرات فتاة عاقلة": "عندما أصبح عمري ١٩ سنة كتبت حواراً طويلاً تناوب فيه صوتان هما صوتي، صوت يقول هباء كل شيء، التقزز والوهن، وصوت آخر يؤكد أن الوجود جميل ولو عقيماً". المصادفة أن هذه المذكرات صدرت في عام ١٩٥٨، عام صدور "أنا أحيا".

هل تشبه لينا فياض ليلى بعلبكي؟ هذا سؤال لا تستطيع الإجابة عليه إلا الكاتبة نفسها! ليلى بعلبكي المتحدرة من عائلة شيعية جنوبية (مواليد ١٩٣٤) درست في جامعة القديس يوسف مما يعني أنها تجيد الفرنسية على خلاف بطلتها التي درست في الجامعة الأميركية، ولم تكن تجيد الفرنسية (كما تقول). وعملت ليلى في سكرتارية المجلس النيابي اللبناني بين ١٩٥٧ و١٩٦٠، وهذه وظيفة رسمية، ثم التحقت بالصحافة (الحوادث، الدستور، النهار، الأسبوع العربي). إلا أن البطلة – الراوية لينا قد تحمل بعض سمات كاتبتها أو مبدعتها، أو بعض أمانيها وأحلامها. مثلما قد تكون أيضاً خلواً من أي شبه بينها وبين مبدعتها.

حب ومحاولة انتحار

تقع لينا فياض في حب طالب عراقي يدرس في الجامعة الأميركية. مناضل شيوعي في الـ٢٥ يدعى بهاء وتعيش معه حالاً من الصراع الداخلي. تلتقيه في مقهى "العم سام" الشهير حينذاك في منطقة رأس بيروت، وتداوم على لقائه. لكن العلاقة تنتهي سلباً وهجراناً ويأساً، واكتشفت فيه وجهه الآخر، الوجه الذكوري التقليدي الذي ينظر إلى المرأة مثل بقية الرجال الذين تكرههم. وكانت تكره فيه شخصية الحزبي الملتزم والمتناقض، وقالت له مرة: "أنت عبد للحزب وأنا حرة". إلا أن الهجران أثر فيها كثيراً وجعلها تكتشف وحدتها من جديد ومستقبلها الضائع وواقعها السلبي والفراغ الذي تخشاه. وتحاول في لحظة يأس أن تقدم على الانتحار لكنها كانت أجبن من أن تنتحر. رمت بنفسها أمام إحدى السيارات مدركة أن المارة سيمسكون بها وهم فعلوا.

ولم تقدم على هذه المحاولة إلا لأنها تعلم أنها عاجزة عن الانتحار: "أنا جبانة لا تموت"، تقول وعلى رغم جرأتها لم تستطع أن تستسلم لرغبتها الدفينة في إقامة علاقة جنسية ولو خفيفة مع بهاء، لكنها أعملت مخيلتها في هذا القبيل، وراحت تتخيل نفسها مضطجعة معه في السرير. إنه الجنس متخيلاً يمارسه الجسد المقموع، الجسد الذي لم يستطع أن يفك عقده الموروثة. هذه العلاقة المبتورة التي انتهت بالهجر، وهي أصلاً علاقة قصيرة وعابرة، توقع لينا فياض في حال من الخيبة. إنها خيبة العودة للبيت، للأسرة ولسلطة الأب. تقول في ختام الرواية: "رجعت إلى البيت، كأنني مجبرة على العودة للبيت. دائماً يجب أن أعود للبيت". كانت تلك العلاقة أشبه بخشبة خلاص في بحر الفراغ الذي غرقت فيه، لكن الخشبة لم تنقذها من ذلك الغرق، لأنها مكسورة أصلاً. أما الحصيلة فهي كما تقول: "لا بهاء، لا طفل، لا عمل، لا جامعة. مهازل. مهازل. مهازل".

عندما اندلعت الحرب اللبنانية في عام ١٩٧٥ هاجرت ليلى بعلبكي إلى لندن وانقطعت عن الكتابة الصحافية وراح حضورها يخفت إلى أن عزلت نفسها عن الوسط الأدبي والصحافي، وقيل إنها كانت ترفض أن تعقد أي لقاء مع الصحافة، مؤثرة البقاء في الظل بعد كل تلك الضوضاء التي أحدثتها في الستينيات والسبعينيات. ولعل انقطاعها عن الكتابة الروائية في أوج شهرتها يمثل لغزاً: لماذا هجرت صاحبة "أنا أحيا" الكتابة باكراً؟ هل عانت أزمة مع الكتابة نفسها؟ أم تراها شعرت بأن ما كتبته على قلته هو قدرها كروائية؟

٠ الاندبندنت عربية

ليلى بعلبكي وحطام الأحلام الزاهية

صقر أبو فخر

منذ نحو خمسين سنة مشت ليلى بعلبكي كغزالة مرتعبة إلى غروبها الذي اختارته بنفسها. مرّت كما تمر الغيوم، لكن الشجيرات التي نمت على قطراتها بقيت لتشهد تبدّل الفصول وموت أوراق الغصون. أومضت ليلى بعلبكي قبل نحو سبعين سنة في سماء بيروت، وأشعلت لهيبًا في الحياة الثقافية اللبنانية، وخُيِّل لكثيرين يومذاك أن شجاعة بعلبكي كانت مثل السنونوة التي يبشر مقدمها بالربيع حتى لو كانت وحيدة.

وتلك الأحلام الزاهية جعلت جيلاً من الكُتّاب والشعراء والأدباء والمفكرين يعتقد أن بيروت ستكون المدينة الوثابة والمتلألئة التي ستحتمل مشاعل التنوير والتقدم والنهضة إلى العالم العربي. غير أن هزيمة الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ بددت ذلك كله، وغوّرت عناصر التحفز، وأرغمت بعض الأقلام على الانطواء قسرًا في الجيوب الداخلية. ولعلّ ليلى بعلبكي التي كفّت عن الكتابة قبيل هزيمة ١٩٦٧، كانت قد استشعرت، بعد صدور مجموعتها القصصية "سفينة حنان إلى القمر"، ما كان كامنًا في الحياة العربية من ارتجاع وعنصرية وتعصب، وعلمت بحدوسها الثاقبة أن الجمهور الثقافي العربي الحديث هو وارثٌ لجمهور الحكواتي القديم؛ جمهور الزير سالم أبو ليلى المهلهل وأبو زيد الهلالي وذياب بن غانم، أي العيش في العصر والتفكير كما كان يفكر السلف، وهو انفصام مميت.

ولا شك في أن مجموعة "سفينة حنان إلى القمر" (١٩٦٣) كانت مغامرة أدبية شجاعة حيث لا إبداع من دون مغامرة. والمغامرة الأدبية أو الفنية أو الفكرية تفترض حرية لا ضفاف لها في ارتياد آفاق بلا قيود أو حدود، وتتضمن التعرض لموضوعات "محرّمة" كالوحي والنبوءة والمعجزات والله واليوم الآخر والجنس... إلخ. وربما اكتشفت ليلى بعلبكي مبكرة أن الثقافة العربية، حتى في لبنان المنفتح آنذاك، ذات مبنى ديني، أي أنها ثقافة إتباعية في جوهرها، ثقافة ترفض الإبداع وتدينه في الوقت نفسه. وربما كان لاحتجازها لدى شرطة الآداب، ثم محاكمتها بالطريقة المهينة، أثر مباشر في نكوصها عن الكتابة، واختيار دروب أخرى للحياة بعيدة عن التحدي والمواجهة.

ظهرت ليلى بعلبكي في بيروت في أواخر خمسينيات القرن المنصرم، وانخرطت في عالم الكتابة، وتمكنت في فترة وجيزة من أن تحجز لنفسها مكانًا إلى جانب أديبات تلك المرحلة ممن سبقنها أو لحقنها أمثال إميلي نصر الله وليلى عسيران وحنان الشيخ ومني جبور (انتحرت في ١٩٦٤/١/٢٤ بعدما نشرت رواية "فتاة تافهة" متأثرة برواية "أنا أحيا" لليلى بعلبكي). وفي تلك الأجواء كانت الأديبة والروائية السورية غادة السمّان تهز الوسط الثقافي في بيروت بجرأتها وبالموضوعات التي تناولتها وبإبداعها المتفرد. وبهذا المعنى كانت ليلى شوطًا يانعًا في مسيرة الثقافة في لبنان إبان صعودها وازدهارها.

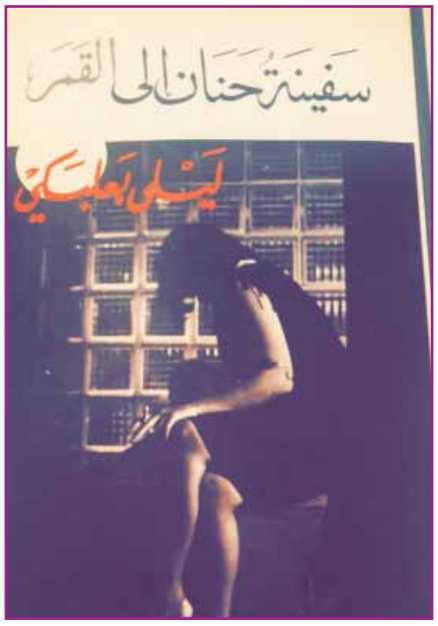

المحاكمة المشينة

كانت محاكمة ليلى بعلبكي في عام ١٩٦٤ مشينة بلا شك؛ مشينة لمن حاكمها ولمن دعا إلى محاكمتها. والقصة من بابها إلى محرابها على النحو التالي: نشرت ليلى بعلبكي قصة "سفينة حنان إلى القمر"، أول مرة، في مجلة "حوار" التي كان يصدرها الشاعر الفلسطيني، السوري الأصل، توفيق صايغ (راجع: مجلة "حوار"، العدد الرابع، أيار – حزيران ١٩٦٣). وفي العام نفسه أصدرت مجموعة قصصية بالعنوان ذاته أي "سفينة حنان إلى القمر". ولم تُثر المجموعة، في بداية الأمر، انتباه أحد إلا القليل من الأدباء والنقاد. لكن، بعد نحو ثمانية شهور على صدور المجموعة القصصية إياها عمدت إحدى الكاتبات المصريات إلى نشر مقالة في مجلة "صباح الخير" القاهرية بتوقيع "نادية". وقد هاجمت الكاتبة المجموعة القصصية ومضمونها مستخدمة طرائق الردح المصرية مثل: "أدب إيه وكلام إيه... روحي يا شيخة". وعلى الفور تحركت جهات لبنانية رجعية لدى السلطات اللبنانية لمصادرة الكتاب ومحاكمة الكاتبة. وهذا ما جرى بالفعل؛ فقد احتجزت شرطة الآداب اللبنانية (نعم شرطة الآداب) ليلى بعلبكي، وأخضعتها لاستجواب دام ثلاث ساعات ونصف الساعة، ثم أحيلت على المحاكمة بتهمة "الإساءة إلى الأخلاق العامة!".

وكانت تلك المحاكمة هي الأولى من نوعها في تاريخ القضاء اللبناني. وتولى المحامي محسن سْليم (والد لقمان سْليم وزوج الكاتبة المصرية – اللبنانية، السورية الأصل، سلمى مرشاق) الدفاع عن ليلى بعلبكي. والغريب في الأمر أن رئيس تحرير مجلة "صباح الخير" كان آنذاك الروائي المصري إحسان عبد القدوس الذي كثيرًا ما تعرض للنقد، واتُهم مرارًا بأن رواياته، خصوصًا رواية "أنف وثلاث عيون"، تروّج للانحلال الخلقي والتحرر الجنسي.

استنكر ما لا يقل عن خمسين كاتبًا ومفكرًا وأديبًا وفنانًا من العالم العربي تلك المحاكمة، وشبّه بعضهم محاكمة الرواية وصاحبة الرواية بما أثارته رواية "مدام بوفاري" لغوستاف فلوبير، أو ديوان "أزهار الشر" لبودلير، أو رواية "عشيق الليدي تشاترلي" للروائي دي. إتش. لورنس، أو رواية "لوليتا" لنابوكوف. وقد دافع عنها شعراء وصحافيون ومثقفون في لبنان من عيار خليل تقي الدين وأنسي الحاج ويوسف الخال وابراهيم سلامة وجميل جبر. وفي المقابل استنكرت بعض الهيئات النسائية اللبنانية الرجعية المجموعة القصصية لاحتواء بعض الفقرات كلمات إيروسية، وطالبت بحرقها. وشنّت جريدة "الشعب" البيروتية حملة ضد الكاتبة متهمة إياها بـ"القذارة". ورفضت الباحثة ثريا ملحس وقاحة الكتَاب، وحذا الصحافي سعيد فريحة حذوها، فيما تناولت صحف أوروبية، خلافًا لبعض الصحف العربية، هذه القضية بحماسة وتعاطف مثل الأوبزرفر والدايلي إكسبرس وجون أفريك وفرانس سوار. وفي نهاية المطاف حكمت المحكمة في ١٩٦٤/٧/٢٣ بوقف التعقبات بحق ليلى بعلبكي. وكان من عقابيل ذلك، على ما أعتقد، أن الكاتبة، جراء خيبتها بالوسط الثقافي في بيروت، وغصتها من المحاكمة بحد ذاتها، أنْ توقفت عن الكتابة. والعجيب أن ليلى بعلبكي انزوت في حقبة كانت مدينة بيروت تشهد تحفزًا فكريًا وأدبيًا مميزًا، ومحاولات نهوض جريئة، وتسطع بكثير من الأحلام الثورية الزاهية.

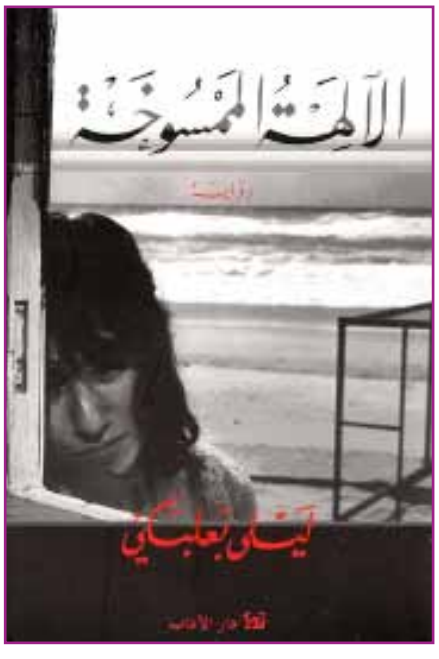

سيرة الغياب

ولدت ليلى بعلبكي في بيروت في عام ١٩٣٤، وتعود جذور عائلتها إلى قرية حومين التحتا في منطقة النبطية الجنوبية. والدها هو الشاعر الزجلي علي الحاج البعلبكي الذي أصدر عدة دواوين مثل "بسمة الفجر" و"خيمة الصحراء"، علاوة على كتاب "الأمجاد البادية من عرب البادية". وقد درست ليلى بعلبكي في المدرسة الرسمية في حي عين المريسة على شاطئ بيروت، ثم انتقلت إلى كلية المقاصد الاسلامية، فأنهت فيها المرحلتين المتوسطة والثانوية. ثم تابعت دراستها في معهد الآداب الشرقية التابع لجامعة القديس يوسف في بيروت، لكنها لم تكملها.

بدأت الكتابة في الرابعة عشرة، ثم عملت موظفة في مجلس النواب اللبناني بين ١٩٥٧ و١٩٥٩. وفي عام ١٩٥٨ أصدرت روايتها الأولى "أنا أحيا"، وهي رواية وجودية المضمون تصور اغتراب الانسان عن ذاته، وتمرد المرأة على الرجل. وقد لقيت هذه الرواية صدى إيجابيًا لدى النقاد، وترجمها إلى الفرنسية الأديب الفرنسي ميشال باربو (منشورات دار النشر العربية في باريس)، وتحدث عنها المستعرب جاك بيرك في دراسته الموسومة بعنوان "القلق العربي في الزمن المعاصر"، ما وضع ليلى بعلبكي على عتبة الشهرة الأدبية، وجعلها أحد الوجوه المعروفة في ميدان الثقافة في بيروت آنذاك. ومكنتها شهرتها حينئذ من الإقامة الموقتة في باريس نحو سنة بين ١٩٥٩ و١٩٦٠.

في تلك الأثناء نشطت في ميدان الكتابة وفي إلقاء المحاضرات مثل محاضرتها في "الندوة اللبنانية" (١٩٥٩/٥/١١) التي اختارت لها عنوان "نحن بلا أقنعة"، والتي صبّت فيها نقدها على المجتمع اللبناني والمجتمعات العربية، وعلى العائلة والقيم السائدة. وفي خضم ذلك التألق كانت مقالاتها تُنشر في المجلات الأكثر انتشارًا في لبنان كـ"الأسبوع العربي" و"الحوادث" و"الدستور"، كما نشرت بعض مقالاتها في مجلات مثل "أدب" و"شعر" و"حوار" و"الآداب". وبعد نحو سنتين على صدور "أنا أحيا" صدرت لها رواية "الآلهة الممسوخة"، فلم تحظَ بالصدى الذي حظيت به روايتها الأولى. لكن، ما إن صدرت مجموعتها القصصية "سفينة حنان إلى القمر" في عام ١٩٦٤ حتى هبّت في وجهها جميع كائنات الكهوف، وكان ما كان مما ذكرناه عن محاكمتها وعن ردات الفعل الأدبية والنقدية. ومع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في عام ١٩٧٥ غادرت لبنان إلى إنكلترا. وفي تلك الأجواء تزوجت أنطون وديع تقلا (توفي في ١٩٩٣/٨/١)، وأنجبت ابنتين وابنًا. وفي عام ١٩٧٩ عادت إلى لبنان بعدما قرّ قرارها على اعتزال الكتابة والصحافة والناس إلا القليل من أصدقائها، وعاشت منذ ذلك الزمان بين إنكلترا ولبنان، ولم تظهر إلا مرات قليلة كظهورها في معرض الكتاب العربي في بيروت في عام ٢٠٠٩ غداة إعادة إصدار دار الآداب اللبنانية جميع مؤلفاتها، وتوقيع تلك الكتب لرواد المعرض. هكذا تناثر أعلام ذلك الجيل مثل أوراق الخريف، وتطايروا هنا وهناك مثل غبار الطلع، وانتشروا في أوطان الشعوب الأخرى حيث لم تكن لديهم بلاد لتحمي أجسادهم، ولا أوطان لتحضن إبداعهم. كانوا غرباء في عالم غرائبي، وكانت ليلى بعلبكي غريبة كغزالة هاربة.

• عن الضفة الثالثة

ليلى بعلبكي: أوّل روائيّة عربيّة تصرخ بحرّية المرأة

بـــول شـــاوول

وصف الشاعر الفرنسي بول كلوديل الشاعر الكبير رامبو الذي أنهى في العشرينات تجربته الشعريّة الرائدة، بعدما عاش حياة بوهيميّة، تمرّد فيها على التقاليد السائدة بـ"الزائر المرموق". ويمكن القول إنّ التسمية تجوز على الروائيّة الراحلة ليلى بعلبكي، التي، بعد روايتين ومجموعة قصصيّة، توقّفت عن الكتابة، ثمّ وعند اندلاع الحرب في لبنان ١٩٧٥، هاجرت إلى لندن، بعد زواجها، وبقيت هناك.

لم يخلف رامبو بعد ترحله إلى البلاد الواسعة، ضوضاء، أو ثورة اجتماعيّة، لكن ليلى بعلبكي، فجّرت ثورتها "النسويّة" (وهي الأولى في العالم العربي)، في أعمال ثلاثة "أنا أحيا"، و"الآلهة الممسوخة"، و"سفينة حنان إلى القمر". أقلعت سفينتها الرياديّة إلى الصمت، الصمت بعد العاصفة.

ما بين ١٩٥٠ و١٩٦٠ اندلعت ثورات أدبيّة، وشعريّة عربيّة، وبرزت في دواوين شعريّة أو مجلات ثقافيّة مثل "شعر" و"الآداب"، حاولت تفجير الشكل الشعري والأدبي، جسّدها عدد من الشعراء، ولكن غلب على هذه الصرخات التمرّد الشكلي والبنيوي من إيحاءات السورياليّة وسواها.

لكن الرواية في تلك المرحلة لم تعرف مثل هذه القفزات، بل كان يمكن أن نجدها عند بعض المفكرين والمناضلات اللواتي يطالبن بحقوق المرأة، ضمن الحدود "التجريديّة".

معركة التمرّد

في هذه المحاولات التغييريّة وحدها ليلى بعلبكي، خاضت في أول تفتحاتها معركة التمرّد على الذكوريّة، والعادات البالية والتقاليد، إنّما بلغة بسيطة، حيّة، سرديّتها بلا إشكالات، ومناخها مواجهة المضمون الركيك، ومواجهة المجتمع من خلال بطولات نسائيّة، سواء في "أنا أحيا" أو في "سفينة حنان إلى القمر"، فالأدب الذي مارسه الشعراء المجدّدون اقتصر عموما على محاولة تفجير اللغة، أو الخروج على التراث. وهي خاضت التجربة بحواسها (أو رواياتها) منبثقة من الحاسة المشهديّة والمعيشة التي تبني عليها معماريّتها. لا لعب على اللغة، ولا تسجيل أهداف حداثية، بل الحدث المرئي، وما وراءه، هو الذي أرادت نقله، بلغته اليوميّة، وبمفارقاتها، من العائلة التي يسيطر عليها الذكر، إلى مجمل الواقع؛ من دون إعمال جماليّة ما في التركيب السردي، بل بواقعيّة الكلام المباشر، من دون التفريق بين ألفاظ "نابية" ومن دون لياقات في السلوك ضمن الشخصيات العائليّة فيه أو الاجتماعية. إنها ثورة "فجة"، تلقائيّة غاضبة على العفن في الحياة العامة أو الخاصة. إنها الشراسة الأنثويّة التي ملّت الركون في "المحرّمات" اللغويّة، والجسديّة، والسلوكيّة.

تحدّت المثقّفين أولّا الذين لم يتجاوزوا مجازات الدورة الشكلانيّة (وإن أحيانا لفظية محدودة). ثورة أصابت اللغة النخبويّة، وكذلك التراكيب النحويّة: اللغة هي ما يصدر عن الحواس، ومن الجسد، ومن الغضب العاري، والاحتقار الحاد. إنّها الثورة التي تواجه الواقع بتعابيره، اليومية، التي تمسخ أحيانا الشخصيات سواء الرجل أو المرأة الخاضعة لتقاليد الأقربين والأبعدين.

خروج على البلاغة

هذا بالذات صفع بعض الرؤوس النسويّة والذكوريّة، التي اتّهمتها بضعف القيمة الروائيّة، باعتبارها خرجت على البلاغة المعهودة، وكذلك بضعف الكتابة السرديّة، فهم يريدون بلاغة فارغة أو إنجازات شعريّة شكلانيّة. هي رمت كل ذلك، واخترقت عمق المجازات الاجتماعيّة والعائليّة، المتمثلة بأخلاقيات قائمة على تهتيك المرأة، وإخضاعها، وعنوان "أنا أحيا" ملائم. فالحياة بالنسبة إليها هي الحرّية والخروج من السجن التاريخي، إلى فضاء الكتابة الحيّة. فهي تحيا بقدر ما توسع أفق الحياة، والجسد، والعلاقات السويّة، والمساواة بين الرجل والمرأة. الحياة ليست مصنوعة لتكون وراء أقفاص العادات الموروثة، كأنّما تعيش في الماضي. الحياة هي رصيد الواقع المفتوح على العالم بلا عوائق تفتعلها المجتمعات المغلقة، بلغاتها المصبّرة، وبسلوكيّاتها المأسورة.

لذلك، أخبرتنا ليلى بعلبكي، كما أخبرتنا سيمون بوفوار، أن الرجل عندما يهيمن مسلحا بالطوباويّات الغيبيّة والماديّة، يعني ذلك إلغاء للمرأة، وتحويلها مجرّد إناء يصبّ فيه الرجل كلّ جبروته.

هنا ثورتها في عمق الجرح اليومي والتاريخي وليس في ترتيبات الكلمات فحسب. وهذا بالذات ما جعل بعضهم، وخصوصا بعض النسوة "الحريم" أو "الحرائر"، يرفضن هذا التطاول المزدوج على العائلة السعيدة برأسها الأبوي، وعلى اللغة المعبّرة التي كتبتها كالنار على صفيح، ضاربة فيها الوجوه والعقول بأبشع الصفات، والبذاءة في مثل هذه الحالات تصبح ضربا من ضروب الاحتقار والرفض، لا للعلاقات الاجتماعيّة، بل للغاتها الميّتة، المصبّرة، و"المهذّبة".

وهذا ما ارتكبته صحافيّة يوما هاجمت مجموعتها، متّهمة إيّاها بالإباحيّة وهي تعيد بعض هذه الألفاظ الواردة في الكتاب، معلّقة: "ملعون هذا الأدب يا شيخة".

اغتراب الإنسان

روايتها "أنا أحيا" في العمق وجوديّة المضمون تصوّر اغتراب الإنسان عن ذاته وعن محيطه وتمرّد المرأة على الرجل. والحرّية الجسديّة تكمن بالنسبة إلى بعضهم في إمكان المرأة تحرير جسدها بالمتعة، وألاعيب العشق وبذل الجسم، في حين أن بهاء بطل الرواية يحمل على الرغم من أنه شيوعي، أي مدني وعلماني وتقدّمي، يحمل أفكارا بالية عن المرأة، وتنتهي الرواية بفشلهما. إنها بطلة تتناقض، تعاني الوحدة، والقمع العائلي، تكره والدها وتسخر منه رجلا ذكوريّا وزوجا تاجرا ينتمي إلى طبقة الأثرياء. أمّا الأم فلم توفّرها بدورها من بغضائها. إنها نموذج المرأة التقليديّة التي لا تعرف من الحياة إلا إعداد الطعام وتربية الأبناء ومشاركة الزوج فراشه عندما يقرّر هو، هي امرأة خاضعة للذكر، تشفق عليها وتشمئز منها: "منظر لحم والدتي يثير قرفي منها".

الحملة التي تعرضت لها ليلى بعلبكي، في كتابها الثالث، "سفينة حنان إلى القمر" (١٩٦٤)، فاقمت الوضع، فقد تعرّضت إلى الهجوم من جهات لبنانيّة وعربيّة، لأفكارها الثوريّة من أجل حرّية المرأة، وكذلك لاحتوائها على مقطع أو جملة موصوفين بالإباحيّة، حُوكمت وأوقفت وخضعت للتحقيق أمام القضاء اللبناني، وهذه المحاكمة كانت الأولى من نوعها التي يحاكم فيها كاتب لبناني على مضمون كتابه كما قال النائب ومحامي المتّهمة، محسن سليم (والد شهيد الحرّية في لبنان لقمان سليم)، وهذه المسالة أثيرت بسبب تعليق ورد في مجلة "صباح الخير" المصريّة بإمضاء معلّقة اسمها ناديا.

هنا ثورتها في عمق الجرح اليومي والتاريخي وليس في ترتيبات الكلمات فحسب. وهذا بالذات ما جعل بعضهم، وخصوصا بعض النسوة يرفضن هذا التطاول المزدوج على العائلة السعيدة برأسها الأبوي، وعلى اللغة المعبّرة التي كتبتها كالنار على صفيح.

لن أعتذر

لكن أثناء المحاكمة صرخت ليلى "لن أعتذر أمام القاضي، أمام هيئة المحكمة، عن الأشياء التي كتبتها والتي أحاكم من أجلها؛ أنا جدّ فخورة بما كتبته. وإنّني اسأل هل العطاء جريمة؟ ذنب؟ خجل؟ إنّني أؤكد وأشعر أن هذه القضية تطاول جميع الأدباء والفنانين. عيب أن أقف أمام المحكمة وأشرح لماذا كتبت: أنا أكتب بحرّيّة للنخبة والمثقفين ذوي الأفكار السامية". بعد هذه المحاكمة أطلق سراحها، مُحققة أوّل انتصار ثقافي لبناني في حرّية التعبير، وفي فتح الحداثة على واقع المرأة. فلا حداثة من دون حرية المرأة.

لكن الإنجاز الآخر جاء من قبَل المثقفين، الذين دعموا الكاتبة وأدانوا المحاكمة، ونَشرت مجلة "حوار" (كان يرأسها الشاعر توفيق صايغ)، تفاصيل المحاكمة، وشبّهت الصحف قضيّة ليلى بعلبكي بقضيّة مدام بوفاري للروائي الفرنسي فلوبير، و"أزهار الشر" لبودلير و"لوليتا" لنابو

لكن رأى كثيرون، وعلى الرغم من تبرئتها، أنّ المحاكمة أنهت المرحلة في مسار بعلبكي الأدبي، لأنها عانت كثيرا من ردود الفعل السلبيّة عليها، وكذلك طريقة الاستجواب، وعندما اندلعت الحرب في لبنان عام ١٩٧٥، هاجرت إلى لندن واعتزلت الكتابة، ورفضت إجراء أيّ حوار صحافي، أي أنها اختارت الصمت بعد الضوضاء، والعائلة بعد التمرّد.

رحلت ليلى بعلبكي بعدما حفّرت عميقا في مسألة حرّية المرأة وخضوعها صرخة للمناخ الذكوري. وكانت أوّل صرخة مدوّية لروائيّة عربيّة تطالب بحرّية المرأة، والثورة على التقاليد.

إنها الزائرة المرموقة، الشهاب الذي لمَعَ لحظة، وانطفأ.

• عن مجلة المجلة

manarat
www.almadasupplements.com
رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق
منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

"أنا" ليلى بعلبكي

شـــربـــل داغـــر

غياب ليلى بعلبكي سابقٌ، مديد، بعيد، إذ قررتْ التوقف عن الكتابة منذ عقود، وهجرت لبنان في الوقت نفسه. كما لو أن العلاقة بين الكتابة والبقاء في بيروت كانت لازمة.

ومـن يتفحص في ما جرى، قد يقـول: لقد أصابتْ. أي أن ما بقي لا يعدو أن يكون نـجاحات فردية لأدباء، فيما يتراجـع المجتمع، الـذي كانت رواية بعلبكـي الرائدة، "أنا أحيا" (١٩٥٨)، من تجلياته الباكرة.

فمـا أعلنتـه بعلبكـي، منـذ عنـوان روايتهـا، يتعـدى موضـوع الروايـة، ليبلـغ الصـوت والنـبرة: صـوت "الأنا" التي تتبرم من والدها، وأمها، وجارها، ورب عملها، فيمـا يثيرهـا جـرح قـديم في صـدر صديقهـا العراقي...

هـذا الصـوت لا يحـترم، مـن دون حـرج، المألوف في العادات المحلية، لا سيما بين الرجل والمرأة.

أما النبرة فنزقة، لصبية "شقية" (كما يقال في المصرية المحببة).

فرانسواز ساغان أعلنـت ذلك، قبل سنوات قليلة منها: "صباح الخير، يا حزن"، فيما أعلنت بعلبكي صرخة كتومـة، ما هو مشروع حيـاة، في الكتابـة على الأقل. صوت بعلبكي جعل للأديبة وجهاً وصوتاً واسماً، ولم تعد تتخفى خلف أسماء مستعارة.

ونـبرة صوتها أحالت لغـة التعبير العاطفـي، بين مي زيـادة ونـازك الملائكـة، علـى سبيـل المثـال، صالحـة للإنشاء المدرسي وحسب.

هذا الصـوت لم يكـن إيديولوجياً بالمعنـى السياسي، ولا الحزبـي، في أدبيـات اليسار اللبنـاني خصوصاً، بـل كان صوتاً يعـارك في مهموس المجتمـع اللبناني، في يومياتـه، في علاقاته: بين الوالد وابنته، بين المقيم والجـيران، بـين احتمالات الرغبـة المؤجلـة دوما بين طالبَين...

مـا كان قد تجلى في شعـر إدفيك جريدينـي (شيبوب) وثريـا ملحـس منـذ مطالـع الخمسينـات في القـرن الماضي، بقي من دون أثر حتى العقدين الأخيرين.

أمـا في السرد، فقد نقلَ حكايات المرأة المكتومة، بعد ما كتبَه يوسف إدريس بشكل خاص في "بيت من لحم".

هـذا السـرد عـرف، ولا سيمـا مـع أعـداد كبـيرة مـن الروائيـات، طفرة عارمة تتعدى مـن دون شك ما قالته بعلبكـي: هذه اكتفـت بالصوت والنـبرة، فيما اتـجهت روائيـات وروائيـات إلى حكـي... الممنـوع، ولا سيما الجنسي.

المفارقـة في هذا كله، هو أن قضيـة المرأة تَظهر، تتأكد، في الشعـر كمـا في السرد، فيمـا تتراجـع أحوالها في المجتمعات، ولا سيما مع الحشمة الفقهية ذات الأساس السياسي. بعلبكي انتصـرت بكتابتها أمام محكمة في بـيروت، هل كانت لتربـح القضيـة في أيامنا هذه، في بيروت أو غيرها؟

• عن نداء الوطن